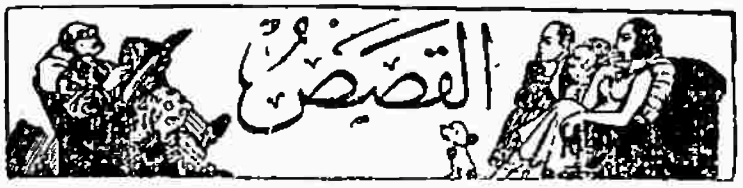

الرسالة الأخيرة

بقلم رالف بلومر

أخذ الناس على أنفسهم أن يتجنبوا سبيل الأخطاء ، ووضعوا نصب أعينهم أن يحيدوا عن طريق الأغلاط ؛ ومع ذلك فكثير منهم من يهوى فى هاويتها ، ويتردى فى حمأتها ؛ بل أصبحت وكأنها من مستلزمات الحياة ؛ أو من ضروريات البشر ، فقد ترى البعض يتدارك الخطأ قبل الوقوع فى نتائجه ، والآخر يقع فيه ويتخبط فى أشراكه وجرائره

بيد أن الأخطاء كثيراً مايمحو بعضها بعضاً . وهنا نرى أن القدر يشاء للبعض أن يجنى من وراء ذلك وربح ... ويشاء للبعض الآخر أن يخسر من جرائه بل ويهلك

أخذت يد « جرافيل فورلاند » تجف ارتجافاً تحت المصباح الكهربائى الموضوع على المكتب ؛ وهو يترع كأسه من شراب البراندى . وما كاد يفرغ من ذلك حتى تقلصت يده على الكأس وتمتم : لقد انتهى كل شىء ، وعما قريب سأمسى فى حالة أخرى آمن بها كل عدوان الدنيا وغدرات الناس ، وهجران الزمن

ثم غيب يده فى درج المكتب وأخرج مظروفاً وضعه نصب عينيه

لقد طالما عاب عليه رئيسه الكولونيل باكستر إهماله وتوانيه ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك بل راح يقدح فيه وينال منه أمام زملائه فى الجيش وإخوانه ، وقد قال له فيما قال .... « فورلاند ! . . سوف لاتسلم من ارتكاب الحماقات والأخطاء مادمت حيا .. إن حياتك مليئة بالأغلاط ، مفعمة بالاخطاء منذ أن أدركت معنى الحياة . وإنى أقول لك على رؤوس الملأ : « إن دخولك فى رحمة الله أو إلقاءك فى قرار الجحيم لن يكون ألبتة سوى نتيجة حتمية لإحدى هذه الغلطات . . . أيها الرجل ! إنك تعيش على الأخطاء وستموت من جرائها »

وأطلق فورلاند العنان لأفكاره تحلق فى أجواء السنتين الماضيتين ، وهو يكتب عنوان الكولونيل على الظرف ونحى المظروف جانباً ، ثم أمسك بإحدى يديه الرسالة التى كتبها منذ لحظة . بينما كانت يده الأخرى تعبث فى حركات عصبية مضطربة بمسدس متوسط الحجم

وراحت عيناه تجريان على كلمات الرسالة

« الكولونيل أ . هـ . باكستر

سيدى الكولونيل

أرجو المعذرة ياسيدى إذا وجدتم أن هذا الكتاب لايمت إلى أعمال الجيش بصلة . وسوف أكون — حينما يصلكم هذا — إما فى جنة الخلد أو فى عذاب السعير . هناك حيث ينال المرء جزاءه من جنس عمله . وقد فضلت هذه النهاية وآثرتها لأنى عجزت عجزاً بيناً عن إعادة ما امتدت إليه يداي الآثمتان من أموال الفرقة التى وكلت بحفظها . ووسد إلى أمر حراستها والعناية بها . ولاعجب إذا وصلك كتابى هذا قبل اكتشاف الحادث ، فذلك ماعملت على أن يكون

وكان الأمل يشيع فى نفسى حتى الآن ، لظنى أنى لابد واجد طريق الخلاص الذى ينثنى عن ذلك المأزق الضيق الخانق . وكان مما يغمر نفسى بالأمل ويفيض عليها بالرجاء ، أن يوم اكتشاف الحادث ليس منا بقريب ، بل دونه أيام عديدة ، وليال كثيرة ، تمكننى من إخفاء الأمر وتسديد العجز وإكمال النقص

غير أن الأيام قد مرت ، والليالى قد تصرمت ، وأصبح اليوم الروع الرهيب قاب قوسين أو أدنى ؛ فلا يمر الليل حتى يغيض نوره ، ولاتمضى ساعات إلا ويبزغ فجره وتترجل شمسه . كل ذلك وأنا كما كنت . . . عاجز عن إخفاء الحادث ، أو إكمال النقص الذى أحدثته يداى اللوثتان . . فليس أمامى فى هذه الحال غير السجن والعار . . سوى الخراب والدمار . . وليس ذلك مما أسيئه أو أرضاه

أما عن المبلغ المختلس فقد بلغت قيمته حتى الآن ستمائة جنيه أو تزيد . فهل يدور بخلدك ياسيدى أنه فى وسعى إعادته إلى مكانه من الخزانة دون أن يدرى أحد ؟ قد يكون ذلك ممكنا من وجهة

نظرك ، ولكن المعجزات لا تحدث فى عصرنا هـذا ياسيدى الكولونيل ، إنما الأخطاء فحسب هى التى يشيع حدوثها ، أو إحداثها إن شئت

وقد تقول : إنه كان فى وسعك أن تقترض المبلغ ؛ غير أنى سوف لا أكون ممك إبان اكتشاف الحادث ، بل إن روحى هى الأخرى ستأبى أن تحضرك ، لأنى لا أرضى أن تزعجك . ولا أود أن تهيجك

وإنى على يقين أن رحيلى إلى العالم الآخر هو خير سبيل تطرق ، وأفضل طريق تسلك ؛ ودعنى أقول لك : وداعا يا سيدى الكولونيل !

المخلص

جرافيل فورلاند

ملازم أول

وغيب الرسالة بعد ذلك فى الظرف وختمه ... ثم ألصق عليه طابع البريد . وكان هو يفعل ذلك حالما ساها ، مفكراً واجما ، تتناوب وجهه الحمرة والصفرة . يرى يديه ترتجف وأصابعه ترتعش .. ولم يكن ذلك لما يشعر من تأنيب فى الضمير لسرقته ، أو وخز فى النفس لفعلته . بل كان ذلك لأنه لا يستطيع درء الفضيحة عنه ، ولا يمكنه دفع العار بعيدا منه ، ولأنه سيفقد عمله لما أتاه من المنكر ، ولما اقترفه من الجرم

إن السبيل الوحيدة والطريق السهلة المعبدة للخلاص من الفضيحة ، والاغتسال من العار اللذين سيجرهما عليه اكتشاف الحادث . هى رصاصة تخترق رأسه

وأبصر يده ترتجف وهو يشعل إحدى لفافات التبغ ، فأيقن أن تظاهره بالثبات وإدعاءه الرزانة والهدوء إنهما إلا قناعا شفافا يخفى وراءه ما يصطخب فى نفسه ويعج من عوامل الرعب والفزع الهائلة .. وقال بلهجة الواثق يحدث نفسه :

— سينتهى كل ذلك سريعا .. ما هى إلا ضغطة واحدة لهذا الزناد وينتهى الأمر كله ، بل ويشق على أى أحد أن يلحق بى أو ينالنى

وأخفى المسدس فى أحد أدراج المكتب ، ثم تناول الرسالة ، وغادر البيت ليودعها صندوق البريد ، أى حظ تعس ذلك الذى يلازمه ؟ من له بمن يعد له يد العون فيرد المال المسلوب قبل أن يجردوا الخزانة ؟ أى دهر جائر ظلوم ، هذا الذى يأبى مساعدته وتخليصه من وهدة العار التى تردى فيها ، وهاوية الدرن الذى تمرغ فيه

وتمتم فورلاند يحدث نفسه :

— ها هو ذا آخر يوم من أيام حياتى ، ينقضى تحت سمعى وبصرى

وألقى الرسالة فى صندوق البريد ، ثم كر راجعا إلى مثواه

وهناك أخرج المسدس وأدناه من رأسه المحموم ، وزم شفتيه ، وغمض عينيه ، وراحت إصبعه تضغط شيئاً فشيئاً وكاد كل شئ ينتهى ، لولا أنه سمع وقع أقدام تقترب منه أعقبه سعلة مكبوتة ودق خفيف على الباب

ودخل الخادم فألقى سيده مبتحيا ناحية من المكتب جالسا فى تراخ وخمول ، أما المسدس فقد كان مختفيا وراء علبة السجاير

— لقد جاءت الآن فقط يا سيدى

فاه الخادم بهذه الجملة فى صوت خافت ولهجة احترام وهو يمد يده إلى سيده برسالة مسجلة ... فتناولها فورلاند بيد مرتجفة ثم أومأ إليه بالانصراف

وفض الظرف فى عجلة واضطراب فسقطت منه الرسالة وهو يخرج حزمة من الأوراق المالية كانت فيه

والتقط الرسالة وأخذ يقرأ ما جاء فيها بعينين جاحظتين

« سيدى : لقد أمرنى عمك جيمس . ب . بويث أن أرسل إليك هذا الكتاب وبه ألف من الجنيهات ، وهى نتيجة الارتفاع الفاجئ لأسهم شركة آبار البترول ، التى كان لك حظ الاشتراك فيها عند فجر حياتك »

وكانت الرسالة مهور بإمضاء مسجل شهير

وأحس فورلاند رغبة ملحة فى أن يرفع عقيرته بالصياح فرحاً وابتهاجاً ، ها هى ذى ألف جنيه فى يده .. ملكه وحده ، لا ينازعه فيها منازع . ولا يشاركه فيها شريك ، سيعيد ما اختلسه فى صبيحة اليوم التالى قبل اكتشاف الأمر دون أن يعلم أحد .. أية معجزة أية خارقة .. أى حظ سعيد ؟ لقد هزأ بالمعجزات وها هى ذى قد حدثت ، وسخر من الخوارق وها هى ذى قد حلت

بيد أنه عبس قليلا وهو ينظر إلى المال ، لماذا لم يرسله عمه صكا على المصرف ؟ ولكنه عاد وتذكر أن عمه يمقت معاملة البنوك ، بل هو لا يثق بها ولا يأمن لها ، إن عادته دواما أن يدفع بالنقد

وتذكر قول عمه له ذات يوم : « أصغ إلى يا فورلاند ، إن شركتنا هذه وإن كانت لا تدر علينا أى ربح الآن . فإنها ستغدو فى مدى زمن — طال أم قصر — من أعظم الشركات الدولية فى العالم » إذن فهذه هى أولى الأرباح ... إذن ستترى عليه المبالغ بعد الآن ...

وفورلاند يعلم عن عمه أنه ما كان يرسل إليه فلسا واحداً ، إذا درى بموقفه الدقيق الحرج ؛ إنه — أى عمه — يكره أن يرى أحد أفراد الأسرة يتلوث بهذا العار ، ويتمرغ فى هذا الرجس . وتقطب جبينه وهو يفكر . . حسنا ! .. سيعيد المال المسروق فتتبقى له بعد ئذ أربعمائة جنيه أو تقل ، ولن يكون هناك مايشينه ويعيبه أمام عمه أو يحط من قدره . بيد أنه أن كوحش حبيس ؛ وزأر كأسد جريح ، حينما تذكر الخطاب الذى أرسله الكولونيل بعنوان بيته فى « إيست كوست » ... لامرية أنه سيتسلمه فى الصباح الباكر

وهب واقفاً فى ذعر . . ما الذى يحق الشيطان جعله يتسرع ويرسل الكتاب ؟ أما كان أولى به أن يتريث إلى الصباح ؟ إنه لا يسعه الآن أن يتلافى الأمر أو يتفادى الكارثة . . ولا يمكنه أن يعيد المال ؛ ويزعم أنها مزحة من مزحه ، أو مهزلة أراد بها التسلية واستطلاع ماقد يحدث . فقد يرتاب الكولونيل فى الأمر ، ويجرد الخزانة بعين أخرى . . منتبهة متيقظة . ويميط اللثام عن التلاعب الذى أحدثه بالمال منذ سنتين

وألقى فورلاند المدس فى درج المكتب . ووضع المال فى حرز حريز . ثم تناول قبعته وغادر مثواه إلى صندوق البريد

ياللحظ التعس . ويالالأمل الخائب ! ! لقد أفرغت الرسائل التى فى الصندوق منذ عشر دقائق فحسب

وتراءت له أشباح السجن والفضيحة والعار . فجن جنونه . إن مصيره الآن فى يد رجل ، ولو أنه طيب القلب إلا أنه لايلين ولا يرحم فى مثل تلك الأمور . ثم إن عمه جيمس لايتردد فى ازدرائه ولفظه والتبرى منه إذا بلغه خبر جريمته الشنعاء وإثمه الكبير الزرى

وأبصر مكتب البريد بجثم فى نهاية الطريق فهرول إليه . وألفاهم هناك فى عجلة من أمرهم وهم يفرزون الرسائل

وارتدى فورلاند ثوب الهدوء وثبات الجنان وهويدلى إليهم بأنه أرسل بمحض الخطأ والتسرع خطاباً يود استرداده . ثم وصف لهم الظرف

فأجاب أحد العمال فى رقة مشوبة بحزم أن إعادة أية رسالة إلى صاحبها ضرب من المستحيل وأفهمه أن مصلحة البريد تعد نفسها مسئولة عن الرسائل حتى تصل إلى المرسلة إليهم

فأخذ فورلاند يتهدد ويتوعد تارة ، ويلين ويتذلل تارة . وكان كل ذلك عبثاً . فلمح إليهم بالرشوة ، ولوح لهم بالمال . وقد رفع المبلغ حتى أضحى يغرى المرء على مخالفة ضميره والإخلال بواجبه ، فنظر إليه العامل نظرة شزراء مليئة بالتهكم والازدراء . ثم أدار عنه وجهه واستغرق فى عمله

فخرج فورلاند يلتمس الهواء البارد الرطب عساه يلطف من هاته النار التى تضطرم بين أضلعه اضطراماً ولعله يخمد ذلك السعير الذى يحتدم فى أحشائه احتداماً

وتراقصت على صفحات ذهنه كلمات الكولونيل التى طالما صوبها إليه معرضا به قادحاً فيه « إنك أيها الرجل تعيش على الأخطاء وسوف تموت من جرائها »

وفى مأواه غرق فى مقعده وراح يشحذ ذهنه ويكد قريحته لعله يصل إلى حل لتلك المعضلة الجديدة أو عساه يجد طريقا للخلاص مما وقع فيه من الخطأ مرة أخرى

وهبط الليل وانتشرت معالمه الطاغية على الكون . بل مضى كل الليلة إلا قليلا واقترب الفجر وكاد يبزغ . وفورلاند لما يجد بعد حلا لذلك الإشكال الجديد ، وظل جالساً بأعين جاحظة وجفون مقرحة ، وشعر مشعث وخدين أصفرين غائرين

ستصل الرسالة إلى الكولونيل بعد بضع ساعات فيقرأها ويدرك كل شئ

ليس هناك سبيل لمنع ذلك ، على الرغم من أن الخطاب لا يزال فى مكتب البريد . يا لله ! كيف يمنع وصوله ؟ لقد أصبح

ذلك مستحيلا ، لأن الكولونيل يتسلم رسائله يداً بيد من موزع البريد . وزأر فورلاند يقول :

— لماذا لم أتريث قليلا ؟

واختفى فورلاند الرح الطروب ، واحتل مكانه فورلاند آخر وحشى النظرات . كساه اليأس ثوب الجنون ، وأورثه الهم والقلق حالة التوحش

ها هو ذا الخراب يتراءى له كوحش هائل يريد ابتلاعه ، والدمار يهاجمه كجارح جبار يبغي اختطافه ، ومع ذلك كان فى وسعه أن يتفادى ذلك لو أنه لم يخطئ ويرسل ذلك الخطاب وملأ كأسه من الكونياك ورفعها إلى فمه بيد ترتعد فى شدة وعنف ، حتى لقد تساقطت قطرات من الشراب على أرض الغرفة

وانتبه أخيراً من ذهوله فرأى أن الصبح قد تنفس وبزغ النهار وأضاء . فأخذ يضحك بينما كانت أصابعه تعبث بالأوراق المالية عبثاً بشئ تافه لا خير فيه

إن الكولونيل ليرفض رفضاً باتا أن يأخذ منه المال ويودعه الخزانة دون أن يفطن إلى الأمر أحد

يا للخراب ! يا للدمار ! لقد خرب ودمر ... كل ذلك من جراء غلطة واحدة . ألا ليته تريث إلى الصباح ، أو إلى أن أتاه المال من عمه

ونظر إلى الساعة فألفاها تشير إلى التاسعة

ستستلم الكولونيل باكستر الرسالة حالا ... إنه يقرأها الآن ، وربما يكون قد أخطر البوليس .. وغرق فى مقعده ثم تمتم

— السجن ! ! ! ...

واعتدل فى جلسته بغتة ثم أردف

— سيأتى البوليس بين لحظة وأخرى ... أجل ، سيأتى فوراً . ألم ينبئ الكولونيل بالسبب الذى حدا به إلى الانسلاح من هذا العالم والتخلص من الحياة ؟

وعادت وتراءت له أشباح السجن والعار والدمار

وضحك مرة أخرى ثم جلس على حافة المكتب وأفرغ فى جوفه كأسين مترعتين من الشراب

ثم امتدت يده تبحث عن المسدس

— كل ذلك من أجل غلطة ... غلطة واحدة ألا ليتنى تريثت قليلا قبل أن أبعث بهذه الرسالة اللعينة

ثم رفع السلاح إلى رأسه المندى بالعرق البارد فى عزم وإصرار

* * *

وعلى عتبة الباب الخارجى راح الخادم يتفرس ويديم النظر فى رسالة سلمها إياه موزع البريد ، وكانت تحمل — فضلا عن عنوان الكولونيل باكستر — ثلاثة أحرف توحى إلى أن اسم الرسالة مكتوب على الوجه الآخر من الظرف

وزمجر موزع البريد يقول

إنه لا يحمل إسم البلد المرسل إليه ، وقد أعدناه لنقص العنوان.

كثير من الناس يقع فى مثل هذه الغلطة ... يا إلهى ! ماهذا ؟!

« وهذا » هذه كانت طلقة نارية دوت فى سكون المنزل العميق أعقبها سقوط جسم على الأرض

م ع م

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد